من طرف أد حشلافي لخضر

خطوات العباد في المشهد القرآني بين الاتزان والتأرجح

د. نادية لقجع جلول سايح/ جامعة سيدي بلعباس الجزائر

ملخص:

ليس غريبا أن تصنّف الدراسات المعاصرة الإنسان بوصفه علامة سيميائية، وأنه كل ما فكر يكون في ذهنه تمثيل يصلح ليكون علامة، تتمدلل عبر تراسل الحواس، البصري، اللمسي، السمعي..، فكل ما هو حاضر في الإنسان هو في الواقع مظهر منه، فالعقل والحواس والوجدان وغيرها جميعها عبارة عن قوى عظيمة تضفي على تكوينه دلالةً خاصة.

إنه في اجتهاد متواصل وسعي دؤوب لاكتشاف ذاته سواء بقصد أو بدون قصد، إنه العلامة الأم التي لا تتوقف عن إنتاج علامات العالم والتفاعل معها.

Résumé :

Il est indéniable que les études contemporaines ont classé l'homme comme un signe sémiotique, et que tant qu'il pense, il y aurait dans sa pensée quelque chose qui peut être un signe, qui apparait à travers les sens, tel la vue, le toucher, l'ouïe … tout ce qui est présent dans l'homme est en réalité un de ces aspects, le cerveau, les sens, les sentiments … sont de grandes forces qui ajoutent à sa formation signification particulière.

L'homme est en diligence continue et acharnée pour découvrir son soi, volontairement ou involontairement, il est le signe principal qui ne s'arrête pas de produire les signes du monde et d'entrer en interaction avec eux.

قال الله تعالى: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" (صورة فصلت آية 53)

ذُكرت أوجه عديدة في تفسير هذه الآية الكريمة، ولكننا سنأخذ بالرأي القائل بأنه يحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه، وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حسن وقبح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله، وقوته وحيله وحذره أن يجوزها، ولا يتعداه[1]. ولعل تلك الأخلاق التي جُبل عليها هي التي تهذب نفسه فتعتدل بذلك حركاته وتتّزن سكناته.

يحاول هذا البحث أن يقف على تمدلل تلك العلامات في إطار التعبير القرآني، الذي يؤصل تخريجات سردية، تتبلور فيها القصة الواحدة، في صور تجعل من القص القرآني فنا مفتوحا على التنويع، يراوح بين القصة الموقف، حيث الحوار يبني الحدث، ويجلي الوقائع، وبين القصة الممشهدة حيث يقوم السرد بالرصد، والعرض من خلال المنظر، والملابسة، وبين الإجمال والتفصيل القصصيين، تحقيقا للمغزى القرآني، وترسيخا للرسالة في ذهن المتلقي بكيفية تأثيرية، تحرك الخيال والعقل معا[2].

صحيح أنه في النصوص السردية كثيرا ما نجد الشعور بضم الخصائص -أي تركيب الصورة وتداخلها في النص- أو تضافرها، لا يعطي حكما نهائيا على ما يراد إظهاره من تقييم، بل تبقى العملية محصورة بالأداء والمهارة لبلورة هذا الشعور أو الإحساس، وفي ضوء هذا الافتراض، تكون الكيفية للمتلقي لها تصورات مسبقة، ربما تكون قادرة على تحليل أو فهم ماهية الدال، -الذي نقصد به النص- والمدلول -الذي نقصد به الفلم-، إلا أن التصوير في القرآن الكريم هو "منهج كامل وطريقة متبعة لا تخطئها العين"[3] لاسيما إذا تعلق الأمر بالقصة فيه، وكيفية سردها بما يصاحبها من فجوات أو ما يسمى بالمسكوت عنه وهي فرصة للقارئ؛ إذ يملؤها بخياله بما يتوافق والسياق.

حركة العباد في القرآن الكريم:

ترتبط الشخصية بالحدث؛ إذ لا بدّ لكل فعل من فاعل،كما أنها تتفاعل مع أحداثها حية في تصرفاتها، مجسدة لملامحها، حتى لكأن "النص القرآني في تعامله مع الشخصية الرئيسة، يريد لها أن تتحرك حركتين في حياتها كلها، حركة تسوق فيها الأحداث الشخصية إلى مصير، وحركة تتولى فيها الشخصية سوق الأحداث إلى مصير آخر"[4].

أما التحرك الفيزيائي للشخصية قي النص منوط بدرجة إيمانها، وقوة عزيمتها، وصفاء روحها، فكلّما كانت كذلك حققت الاعتدال والتوازن وكلما افتقدت إلى تلك الخصال تعثرت وارتدت، والأمر لا ينطبق على الشخصية فحسب وإنما على المشهد كذلك بما يحمله من كثافة تطوي الزمن، مثل تعجيل العقاب أو تعجيل الثواب كما سيأتي تفصيل ذلك. كما أن القرآن الكريم يعتمد في أحيان كثيرة على تصوير الحركات لتدل بدورها على الانفعالات قوة وضعفا، أو عنفا ولينا، ولا يسع المقام هنا لذكرها جميعا لذلك سنكتفي بالوقوف على بعضها فحسب.

1. الحركة المتّزنة:

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (63)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (64)﴾ (سورة الفرقان)

وصف الله تعالى عباد الرحمن: بتسعة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى[5]: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾

الهون الرفق واللين، وفي مشية المؤمن لين وسكينة ووقار وتواضع، ولا يضربون الأرض بأقدامهم ولا يتبخترون. مما يوحي ذلك بالاتزان والطمأنينة. أما كلمة العباد حين اقترنت بلفظ الجلالة "الرحمن" أضفى عليها هالة من النور المشعّ الذي طال الوجوه والملابس والحركة.

الصفة الثانية: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (63)﴾

أ. طلب السلامة والسكوت: فذلك أحسن من المجادلة التي تزيد الجاهل تعصبا وإصرارا على جهله، وسفاهته.

ب. التنبيه على سوء طريقتهم لكي يمتنعوا: وذلك معيار التعقّل والحكمة عسى أن يلتفت المسيء إلى نفسه فيكفّ، أو يحجم عن التعرض لهم بالإساءة لما هم عليه من أدب وورع.

-إظهار الحلم مقابلة الجهل: ليس من الحلم مقابلة الإساءة بالإساءة لأن ذلك يضع المسيء والمسيء إليه في دركة واحدة، وينفي الفوارق بينهما، فالتميّز مطلوب في مثل هذه المواقف.

-﴿قَالُوا سَلاماً﴾ منهم من يرى أنه سلام توديع لا تحية كقول إبراهيم لأبيه "سلام عليك"

جاء في تفسير الرازي: "واعلم أنه تعالى لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين: أحدهما ترك الإيذاء، وهو المراد من قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾، والآخر تحمل التأذي، وهو المراد من قوله: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق في النهار[6].

الصفة الثالثة: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾

تبيّن هذه الآية سيرتهم بالليل عند الاشتغال بخدمة الخالق بإحياء الليل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن.

تزداد الصورة ترسيخا حين تجد ما يدعمها من عوالم بصرية، فالأخلاق الحميدة والفاضلة مثلا تجد لها امتدادا بصريا في قوله تعالى "**يمشون**" إذ يستحضر فعل المشي هنا طريقا مستقيما غير متعرج ولا ملتو، لا يضيق بعباد الرحمن مهما كانت كثرتهم التي توحي بها صيغة الجمع.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (66)﴾

وصفهم الله تعالى "بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذانا مع بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم[7] ، كقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60)﴾ (سورة المؤمنون).

الصفة الخامسة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (67)﴾

وصفهم الله تعالى بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير، وبمثله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً(29)﴾ (سورة الإسراء)

الصفة السادسة: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (69) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً(71)﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى أن من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا، ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الأشياء من العقاب، كما استثنى من جملتهم التائب

يمكن تقسيم هذه الصفات إلى أربعة أقسام[8]:

القسم الأول: هو من التحلي بالكماليات الدينية وهي: يمشون هونا / سلاما

القسم الثاني: هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾

القسم الثالث: هو من الاستقامة على شرائع الإسلام وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ ﴿إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾، ﴿ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ ، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ﴾ ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القسم الرابع: من تطلب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً(74)﴾ (سورة الفرقان)

تنطلق الآية القرآنية إلى فضاء تخيلي لصورة تغمرها حركة تتسم بالاتزان والانضباط، تبعث في النفس الاحترام والوقار، إنها حركات عباد الرحمن ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ بمعنى أنهم يعيشون حياة عادية كغيرهم من معاشرة الناس وخلطتهم، فتلك هي حركات عامة إلا أن كلمة "هَوْناً" أضفت على الصورة طابع الحِلْم واللين أي: يمشون بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعا ورياء (..) وإنما المراد بالهون ها هنا السكينة والوقار، عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلى الصَّلاَةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ، وَلاَ تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا"[9]

إن المشهد الحركي من ذهاب وإياب ومعاملات، مرتبط بصورة معنوية تتمثل في العفة والنبل والسماحة والجمال، ذلك أن "سرعة المشي تذهب ببهاء الوجه"[10]، فالخطوات إذن مدروسة بحكمة، وكذلك الملامح مرسومة بدقة في هذا المشهد، وللقارئ بعد هذا الوصف، أن يتخيل قسمات الوجه "كالابتسامة مثلا"، وانسجام الحركة، ونظافة اللباس، وحسن المقصد، حتى لكأنك ترى إيماء اليد للتحية باحترام ، بل ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ أي " قولا سديدا يسلمون به من الأذى"[11]، فتسمع نبرات الصوت العذبة بكلماتها العفيفة التي يردون بها على الجهال.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55) ﴾ (سورة القصص) إن المشهد كله بحركاته وسكناته ونبراته، يوحي بالاتزان والثقة، والانضباط؛ بل يظهر الدرب في مساره المستقيم وحجمه العريض؛ بحيث لا وجود للتعرج أو الضيق. وإذا حاولنا أن نمثل لحركة عباد الرحمن لوجدناها تأخذ المسار الآتي:

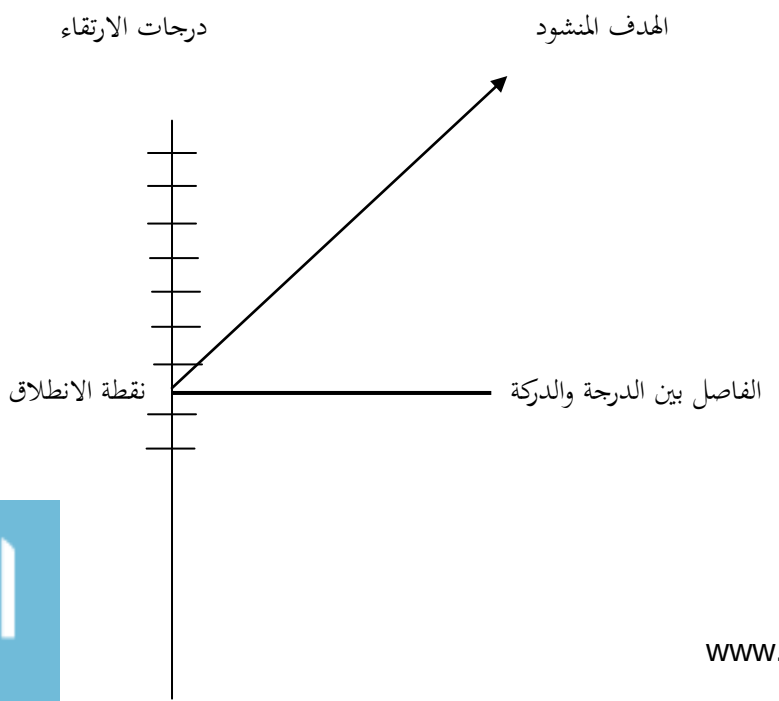

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يتميّز القرآن الكريم بنظرته الواقعية للإنسان، فهو ينظر إليه من خلال طبيعته المزدوجة التي تقبل السمو والتحليق، كما تقبل الهبوط والتدني، ففي النفس الإنسانية الكثير من الخطوط المتقابلة، ففيها القوة الضعف، والسمو والهبوط، والهدى والظلال والشجاعة والخوف ....الخ.

يصور لنا القرآن هذه الطبيعة الإنسانية، ويبرزها من خلال النماذج المصورة. وهدفه ليس تصوير الإنسان ملاكا أو شيطانا، بل تصوير هذه الطبيعة فيه لتوجيه استعداده نحو الخير والصلاح.[12] فبصلاح النفس يصلح المجتمع، وإذا لم يكن بدّ من تقليد البشر لبعضهم بعضا فعباد الرحمن خير نموذج يمكن الاحتذاء به، والسير على نهجه.

2. الحركة التأدبية:

قال الله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ (سورة القصص الآية 24)

" يسقي نبي الله موسى عليه السلام للفتاتين، باذلا أقصى جهده بمشقة وإعياء كبيرين، وبعد ذلك يهرع مباشرة ليستفيء، وقد عملت "ثمّ" هنا على طي الزمن، ونفي صفة التراخي.

وفي هذا الظل متراخيا منهوك القوى مستسلما ضارعا:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (سورة القصص الآية 24)

وتمشي الجملة مع هذه الضراعة ويطل الشعور الديني من وراء النداء ومن التصريح بالفقر والحاجة إلى الخير أمام الغنى الكبير[13]، فذلك درس للذين يبتغون الشكر والمدح ممن صنعوا فيهم فضيلة من البشر.

يبث فينا "موسى عليه السلام " من خلال تأدبه، الحياء والاستقامة، ومن خلال عمله المسارعة إلى فعل الخيرات، ومن خلال دعائه حسن التوكل على الله، وفي ذلك كله ابتغاء مرضاته عز وجلّ.

3. الحركة الارتدادية:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (سورة الحج الآية 11).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عن ابن عباس قال "ومن الناس من يعبد الله على حرف" قال: كان الرجل يقدم المدينة فان ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته وإن لم تنتج خيله قال : هذا دين سوء"[14]: وفي ما يأتي محاولة لرصد معاني الوحدات المشكلة للمشهد من خلال كتب التفسير: أ. **على حرف**:

1. ابن عطية: على انحراف منه عن العقيدة البيضاء أو على شفى منها معدى للزهوق.[15]

ابن كثير: على شك ... على طرف. و منه حرف الجبل أي طرفه. [16]

حسنين محمد مخلوف: شك وقلق وتزلزل في الدين.[17]

ب. **انقلب على وجهه:**

تفسير ابن عطية: عبارة للمولى عن الأمور وخسارته.[18]

تفسير ابن كثير: ترك دينه ورجع إلى الكفر... أي ارتد كافرا.[19]

من خلال التفسير تتحدد لنا ملامح الصورة الأولية من خلال توفر المعطيات الآتية:

الطرف ⟵ الجزء المهمل (غالبا).

الحافة ⟵ على وشك.

تزلزل ⟵ ارتداد

تكتمل الصورة هنا ليظهر المنافق القلق المضطرب، واقفا على شفا هاوية أرضيتها هشة، لا يقوى على الصمود إن هبت عليه عاصفة. ثم تتبدى الصورة الثانية في تصويره كجندي خائب "يقف في آخر الجيش ينتظر النتيجة إن أحس بظفر قر و إن أحس بهزيمة فر[20]".

والصورة الثالثة تجمع بين الصورتين الأولى والثانية؛ حيث تجسد حالة النفاق لدى ضعاف الإيمان ممن يعبدون الله بقدر ما يعتريهم من خير، ويرتدون إذا ما لم يصبهم هذا الخير. فيرجعون إلى ما كانوا عليه من كفر، إن المشهد هنا معبأ بحركة اهتزازية عكسية يفرضها الموقف. ويجسدها الفعل، وإذا أردنا تمثيل هذه الحركة لوجدناها على نحو:

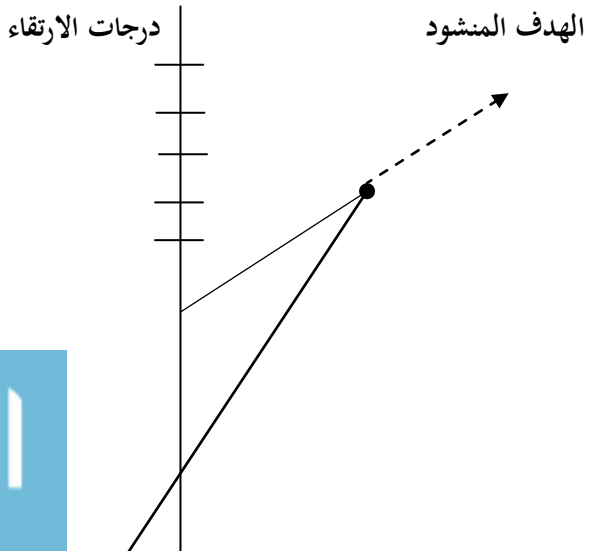

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دركات الانتكاس

يمثل هذا الرسم "حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى، ومن لم ينقلب (المنافق) على وجهه عند مس الفتنة، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب" [21] ، فلا هو مقبل ولا هو مدبر، متحرز بينهما، في ترقب شديد لما يؤول إليه الأمر فيميل حيث مالت أهواءه.

يتكرر هذا النموذج في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (سورة الحج الآيتان 8 و9)

ثاني عطفه: أي لاويا لجانبه تكبرا وإباء[22]، وهي تنم عن حركة مائلة منحرفة عن مسارها الطبيعي. تتضمن كناية عن التكبر والغطرسة. يجادل فيما لا يفقه حتى يجد له أنصارا يضلهم معه في هذه الدنيا فيحسب نفسه قائدهم ومرشدهم، والحركة هنا في مسار متصاعد يغذيها الكِبر ويدفعها الجهل، ولكن ما يلبث أن يرتد المسار مرتين:

الأولى في الدنيا: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾

والثاني في الآخرة: ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

يرتد المسار بعد أن توهّم المجادل أنه بلغ عنان السماء، ثم يرتد فجأة ليرتطم بأسفل الدركات في نار جهنم.

4. الحركة السريعة:

يتعدد هذا النوع من المشاهد في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14)﴾ (سورة القمر).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يمر المشهد في الآية الكريمة خاطفا عبر صور سريعة متلاحقة كما هو مبين في الجدول:

	الصور	حركية الفعل	طبيعة الصوت
الصورة الأولى	التكذيب	تعدي/ اعتداء [معنوي/ حسي]	مجهور
الصورة الثانية	الدعاء	طلب المساعدة[من قوي عظيم]	جياش
الصورة الثالثة	الفتح	تقديم المساعدة[الاستجابة]	قوي
الصورة الرابعة	التفجير	تقديم المساعدة[دحض الكافر]	عنيف
الصورة الخامسة	الحمل	النجاة	صامت

لا تكاد العدسة تلبث عند اللقطة الواحدة حتى تزاحمها الأخرى على عجل ليكتمل المشهد في وقت وجيز، ولو أننا أطلقنا العنان لخيالاتنا لأصبحت كل صورة عبارة عن مشهد مركب من مجموعة صور، لكنه جاءت بهذه الطريقة لتلاؤمها مع الغرض المقصود وهو تعجيل العقاب بعد التكذيب مباشرة، والمشهد مفعم بالحركة لأن التكذيب كان من قِبَلِ قوم نوح عليه السلام؛ بحيث كان يصنع الفلك في مرأى من العيون الساخرة، قال تعالى:﴿ **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38)**﴾ (سورة هود).

وهي جمله حالية تصور الأمر مستمرا متكررا، ذلك أنهم رأوا في عمله هذا مادة جديدة هائلة للسخرية، لا سيما وأنه يقوم بهذا العمل في مكان لا حاجة ولا محل فيه للسفن، إذ كانت القصة ما بين بلاد الشام والعراق[23].

لذا يمكن تصورهم وهم يروحون ويجيئون بالقرب من السفينة حيث يوجد نوح عليه السلام، وسماع أصواتهم الساخرة التي تعم الأرجاء، ورؤية أصابعهم المشيرة إليه في استهزاء، فكان ذلك بمثابة اعتداء جعل المعتدى عليه، يطلب يد العون عن طريق الدعاء في صورة يملؤها الصوت الجياش.

لقد كان الاختصار بحذف المراحل الثانوية المتمثلة في الفترة التي قضاها سيدنا نوح عليه السلام في صناعة الفلك، ثم الزمن الذي لبثه انتظارا لليوم الموعود، فحملت الصورتين الثالثة والرابعة لقطات الاستجابة في حركات عنيفة، بل أشد عنفا في المشهد كله، بلغ الصوت فيها أشده، ليصل التصعيد مع صورته الأخيرة إلى "مشهد السفينة وهم راكبون فيها وهي تشق أمواجا ضخمة كالجبال، وهذا التصور يوحي بشدة الهول وضخامة السيول، وغزارة الأمطار، ويترك للخيال أن يتابع مشهد السفينة وركابها وسط هذه الأهوال المادية والنفسية"[24]، ولكنها بالرغم من ذلك تضمن النجاة لراكبيها فقد قال جلّ جلاله: ﴿**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ**﴾ القمر الآية 14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولعل الفعل" وحملناه" يوحي باللّطافة والرقة، إلى جانب الرعاية المصاحبة ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَ دُسُرٍ﴾ وهنا كناية موصوف أراد بها السفينة"[25] التي تجري تحت رعاية إلهية لمبتغاها، ولقد استخدم النسق اللفظي لئلا يطول عرض المشهد، كما استخدمت وسائل العرض الفنية لهذا الغرض، فهذا التعقيب التي تمثله الفاء في تتابع الأحداث، يتفق مع طريقة العرض السريع والقصير في الآية.

قال تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (45)﴾ (سورة الكهف)

يُعرَض المشهد" قصيرا خاطفا ليلقي في النفس ظل الفناء والزوال"[26]، ولقد استخدمت فيه الوسائل المقصرة للعرض، فالفاء التعقيبية تطوي المشاهد بسرعة عظيمة.

لقد مثل تعالى صورة الحياة الدنيا "في زوالها وفنائها وانقضائها كماء نزل من السماء فاختلط به النبات، وجاءت باء السبب في "به" فأصبح عبارة عن صيرورته إلى ذلك لا أنه أراد اختصاصا بوقت الصباح، وهذا كقول الشاعر الربيع بن ضيع.

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ البَعِيرِ إِنْ نَفَرا[27]

أي بعد أن شب وحسن وملأ الزهر والنور والنظرة زال هذا كله، وأصبح يابسا، ثم انتهى المشهد بصورة الريح وهي تقوم بتفريقه وطرحه ذات اليمين وذات الشمال[28]، حتى لم يعد موجودا كما جاء في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) ﴾(سورة يونس)

يشتمل المشهد على عشر جمل "وقع التركيب من مجموعها؛ بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء، وأنبت العشب، وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس، إذا أخذت الثياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها، وظنوا أنها مسلمة من الحوائج، أتاها بأس الله فجأة، فكأنها لم تكن بالأمس"[29]

قدمت الصورة تفصيلات أخرى للمشهد المصور تتمثل فيما يأتي:

01- مما يأكل الناس و الأنعام ⟵ يريد الزرع والأشجار وسائر العشب المرعي

02-أخذت الأرض زخرفتها وأزيّنت ⟵ التزيين بالألوان والأشكال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

03- ظن أهلها أنهم قادرون عليها ⟵ الذين زرعوها وغرسوها قادرون على جذاذها وحصادها

04-أتاها أمرنا ليلا أونهارا ⟵ تنبيه على الخوف وارتفاع الأمن في كل وقت، والأمر الآتي واحد الأمور كالريح والصر والسموم ونحو ذلك.

05-كأن لم تغن بالأمس ⟵ كأن لم تنعم ولم تنضر ولم تغر بغضارتها*، ولهذا جاء في الحديث الشريف حدثنا عمرو الناقدُ، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانيِّ عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيم قَطُّ؟ فَيَقُولُ لَا . واللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ. فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا . واللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْس قَطُّ. وَلَا رَأَيتُ شِدَّةً قَطُّ"[30].

تعمل هذه الصورة على مستويين: فالمستوى الأول هو ملء بعض الفجوات التخيلية التي تفرضها الآية الأولى. أما المستوى الثاني: تقديم جملة من الفجوات الأخرى يعمل ذهن المتلقي على استجلائها.

فإذا عملت الفاء في ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ على طي المشهد وتمريره بسرعة – مما أضفى عليه طابع الفجائية–، فإنه في المقابل جاءت"حتى" الدالة على امتداد الصور امتدادا يعرف أوله ويجهل منتهاه، وتتابعت أوصاف الغرور الإنساني، تتراءى لكل وصف منها تعبير متمهل متبطىء.

فأما الأرض فشخصت مرتين، وقامت بحركتين، إذا أخذت بنفسها زخرفها كما تفعل العروس في يوم جلوتها، وتطلبت الزينة تطلبا، وسعت إليها سعيا، فلم تزين ولكنها أزينت.[31]

أما أهل الأرض فقد اعتقدوا أنهم قد قبضوا على زمام الأمور، ولن يتفلّت شيء من بين أيديهم، فاستكبروا وعاندوا واغتروا، وما هي إلا طرفة عين، حتى أتى أمر الله وأصبحت الربوع الجميلة المزينة هشيما تذروه الرياح.

خاتمة:

لقد وظف القرآن الكريم كل الأساليب البيانية والبلاغية، بل كل الوسائل التعبيرية التي تعمل على تأدية الخطاب وتوصيله إلى الأذهان البشرية، ولعل أبلغ هذه الوسائل هو المشهد المتسم بالحركة والذي لم نجده في الخطاب القصصي فحسب؛ بل انتشر عبر مختلف آي القرآن الكريم، وفي ذلك يقول سيد قطب: " إن القرآن يرسم صورا ويعرض مشاهد فينبغي أن نقول: إن هذه المشاهد وتلك الصور يتوافر لها أدق مظاهر التناسق الفني في ماء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الصورة، وجو المشهد، وتقسيم الأجزاء وتوزيعها في الرقعة المعروضة"[32]، وبين هذا كله تنتصب الحركة بوصفها عنصرا فعالا في عملية العرض مع اختلاف أنواعها من حركة متزنة ومتأدبة وأخرى ارتدادية وغيرها.

اللهم ألهمنا تدبّر كتابك، وفهم مرادك، وجلِّ لنا من أسرار هذا القرآن الكريم ما تنور به قلوبنا، وتهدي به بصائرنا، واجعلنا اللهم ممن يقيم حروفه وحدوده، واجعلنا اللهم به من أهلك وخاصتك.

الهامش:

[1] ابن كثير: مجلد، 4، دار الحديث، مصر، ص. 124.

[2] سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1998، ص. 69.

[3] محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، 1990، ص. 42

[4] حبيب مونسي، المشهد السردي في القرآن الكريم، قراءة في قصة سيدنا يوسف مخبر الدراسات الأدبية والنقدية واللسانية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط. 1، 2009، ص. 15.

[5] محمد الرازي فخر الدين، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج. 24، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1، بيروت لبنان، 1981 ص. 108.

[6] المصدر السابق، ص. 108

[7] المصدر السابق، ص. 108

[8] يُنظر محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، ص. 67،68.

[9] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ومعه من هدي الساري، شرح غريب صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تح. خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط. 2، 2007، ص. 221.

[10] القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحَرَّرُ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج. 04، تح. عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ظ. 1، 2001، ص. 218.

[11] حسنين محمد مخلوف، تفسير وبيان كلمات القرآن الكريم، ص. 356

[12] عبد السلام أحمد الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم، ص.300.299

[13] محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1965، ص. 299.

[14] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المجلد 3، ص. 259.

[15] ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، المجلد 04، ص. 110.

[16] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مجلد 03، ص. 259.

[17] حسنين محمد مخلوف، تفسير وبيان كلمات القرآن الكريم، ص. 333.

[18] ابن عطية، المحرر الوجيز، مجلد 04، ص. 110.

[19] ابن كثير، مجلد 03، ص. 260.

[20] محمد علي الصابوني، الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص. 212.

[21] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج، 4، ص. 2412.

[22] حسنين محمد مخلوف، تفسير وبيان كلمات القرآن، ص. 333.

[23] ينظر محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص. 27.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[24] عبد السلام أحمد الراغب، وظيفة الصورة الفنية، ص. 271

[25] عبد القادر حسين، القرآن والصور البيانية، دار المنار، مصر، ط.1، 1991، ص. 274.

[26] صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير التي عند سيد قطب، ص. 181.

[27] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج. 3، ص. 519- 520.

[28] ينظر محمد على الصابوني، الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص. 193.

[29] جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص. 110-111.

[*] اعتمد في تفسير ذلك على تفسير ابن كثير، ج. 2، وتفسير ابن عطية الأندلسي، ج. 3.

[30] أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، بشرح النووي الإمام يحي بن شرف النووي الدمشقي الشافعي، تح. فؤاد عبد باقي، مج. 9، ج. 17، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. 1، 2000، ص. 123.

[31] صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن دار العلم للملايين، بيروت، ط.14، 1982، ص.323.

[32] سيد قطب، التصوير الفني، ص. 114

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com